الهوية الرقمية ودورها في إثارة الازمات الاجتماعية في العراق بعد العام ٢٠٠٣

علاء عبد الرزاق

تدريسي باحث

مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية / جامعة بغداد

الملخص

يمثل العالم الافتراضي فرصة لتلاقح الأفكار والتوجهات وصياغة الهوية بشكل بعيد عن تأثير النظم السلطوية ويسهم في زيادة وعي الفرد بذاته وقدرة هذه الذات على تجاوز الحدود الجغرافية والمحددات القومية واللغوية ومن ثم يسهم في صنع هوية متحررة قادرة على استيعاب المتغيرات التي تمر بها البشرية على صعيد التواصل والتلاقح الفكري ولكن مثل هذا التلاقح الذي نجم عن تدفق معلوماتي حر وهائل لم تستوعب معطياته مجتمعات انتقلت حديثا من حالة الانغلاق والتحكم المؤسساتي السلطوي بالمعلومة ومصدرها وتحولها لحالة من الحرية المفرطة وغير المنتظمة بمحددات واضحة، كما هو الحال مع المجتمع العراقي بعد العام ٢٠٠٣ وهو ما ولد جملة من الازمات الاجتماعية منها ما كان متعلقاً باختلال البناء النفسي ومنها ما كان متعلقا بطبيعة العلاقات الاجتماعية التي نشأت في خضم العالم الافتراضي، ولقد تم تبيان جملة من هذه الازمات في ثنايا البحث.

الكلمات المفتاحية

الهوية، الهوية الرقمية، شبكات التواصل الاجتماعي، العالم الافتراضي، الهوية المستقرة، الهوية المستعارة.

Digital identity and its role in sparking social crises in Iraq after 2003

Alaa Abd AL-Razak

Teaching Scholar

Center for strategic and international studies / Baghdad university

Abstract

The topic area of that's paper dealing with digital identity in Iraq, the virtual world represents an opportunity for the cross-fertilization of ideas and trends and the formulation of identity far from the influence of authoritarian regimes. It contributes to increasing the individual's self-awareness and the ability of this self to transcend geographical borders and national and linguistic determinants, and thus contributes to the creation of a liberated identity capable of absorbing the changes that humanity is going through in terms of communication and intellectual cross-fertilization. However, such cross-fertilization, which resulted from a free and massive flow of information, was not absorbed by societies that had recently moved from a state of closure and authoritarian institutional control over information and its source, and its transformation into a state of excessive and irregular freedom with clear limitations, as is the case with Iraqi society after the year 2003, which generated a number of crises. Some of them were related to the imbalance in the psychological structure, and some of them were related to the nature of the social relationships that arose in the midst of the virtual world. A number of these crises have been clarified in the course of the research.

Key Words

Identity, Digital Identity, Social networks, Virtual World, Stable Identity, Alias identity

المقدمة

لم تعد الهوية الشخصية لوحدها هي المعول عليها في تبيان مكانة الشخص ودوره في عالم الثورة المعلوماتية والتكنولوجية والتي تعد واحدة من أهم الانتقالات التي شهدها العالم المعاصر في مجال صياغة المعرفة وتحويلها وتأثيرها المباشر الذي صار شاملاً لكل مناحي الحياة ولعل أهمها صياغة الهوية الفردية والعمل على تقويض أسس ومرتكزات الهويات التقليدية والجمعية، إذ أضحت الهوية الافتراضية والتي نعني بها تلك الهوية التي يتم انشاؤها من طرف المستخدم الانسان الذي يعمل كصلة وصل بين الشخص الطبيعي والشخص الظاهري للمستخدمين، وبمعنى أدق هي مجموع الصفات والسمات التي يقدمها الشخص الطبيعي للمستخدمين على انها صفاته وسماته هو، وهذا يعني أن عملية التواصل هنا سوف تجري بين ثلاثة أطراف الشخص الطبيعي والشخص الافتراضي أي السمات التي يحاول إظهارها عبر وسائل التواصل والطرف الاخر المقابل.

لابد من القول أن تعرف المجتمع العراقي على وسائل الاتصال الالكتروني قد جاء متأخراً قياساً بالمجتمعات العربية المجاورة ناهيك عن البيئات العلمية المتقدمة التي انتجت هذه الاليات الخاصة بالتواصل والتي أذابت الفوارق وأزالت الحدود بين البلدان والثقافات، ومع سعي الغالبية الكبيرة من أفراد المجتمع العراقي لاكتساب هذه الاليات التي وفدت للمجتمع بعد مرحلة من القمع والمنع لأي اتصال مع العالم الخارجي ما لم يكن مراقبا من لدن أجهزة السلطة الشمولية ولما لم يكن هنالك سلطة وسيطة بين مرحلة المنع والانفتاح اخذ التواصل في الفضاء العمومي العراقي يأخذ أبعادا غير مألوفة في تناول قضايا حساسة كان مسكوتاً عنها لحقب طويلة وهو ما أدى لحالة من نشوء أزمات داخل المجتمع كانت الموضوع الأساسي لهذا البحث.

ولعل من المناسب هنا أن نبين حجم البون الشاسع بين حجم استخدام الشبكة الدولية للمعلومات في نهاية عقد التسعينيات من القرن الماضي وتحديدا في العام ١٩٩٨ وهو العام الذي شهد بداية استخدام الشبكة والتي لم تكن متاحة بأي حال من الأحوال لجميع العراقيين حتى تم في العام ٢٠٠٠ توسعة استخدامها فصارت تضم اثني عشر الف مستخدم وهو رقم متواضع جدا ويعتمد على استخدام المؤسسات الرسمية دون الافراد على نظام بريد الكتروني يعرف باسم الوركاء وتم أيضا حجب مواقع سياسية ودينية عديدة، في الوقت الذي بلغ فيه عدد مستخدمي النت في العام ٢٠٢٢، حوالي (٢٠) مليون و٨٥٠ الف مستخدم،

مستخدم (٦٧,٩% ذكور و ٣٢,١% إناث) خلال العام ٢٠٢٢، ويبلغ مستخدمو منصة "تيك توك" وهي الأكثر استخداما في البلاد ٢٠ مليونا و١٦٠ ألف مستخدم, وحصلت منصة "فيسبوك" على المرتبة الثانية بمنصات التواصل الاجتماعي بـ١٨ مليونا و٨٥٠ ألف حساب مستخدم, من إجمالي عدد سكان العراق البالغ ٤١ مليون و٥٤٠ ألف نسمة (٥٠,٦% ذكور و ٤٩,٤% إناث), في حين بلغ عدد مستخدمي الهاتف النقال ٤٢ مليونا و٥٤٠ ألف مستخدم (٧٧,١٧% أندرويد و ٢٢,٦٣% أبل) وعدد مستخدمي الإنترنت ٢٠ مليون و٥٨٠ ألف مستخدم في عموم العراق لنفس العام.

إشكالية البحث

تتجلى الإشكالية البحث بالإجابة عن الأسئلة الاتية: كيف يمكن تصور وجود هوية افتراضية يتعامل بها الفرد العراقي في نطاق العالم الافتراضي ؟ وكيف تطور استخدام الشبكة المعلوماتية في العراق بالطريقة التي افضت لوجود سلسلة من الازمات الاجتماعية بعد تناول قضايا حساسة في المجتمع العراقي ؟

فرضية البحث

تتجلى فرضية البحث بالبحث عن أسس المجتمع الافتراضي في العراق ودوره في تشكيل الهوية الافتراضية بمعنى كيف تشكلت الهوية الافتراضية داخل المجتمع العراقي وكيف تعاملت هذه الهوية مع التحديات التي واجهت المجتمع ولاسيما في المرحلة التي تلت التغيير السياسي في العام ٢٠٠٣، وهل افضت لإثارة جملة من الازمات أو التعقيد للعلاقات الاجتماعية في العراق او انها افضت لزيادة وتائر التقارب بين افراد المجتمع وفتحت آفاق التواصل مع العالم الخارجي، وكيف أثر التعامل مع وسائل وأدوات الثورة المعلوماتية والتكنولوجية على طبيعة الهوية العراقية ؟

استلزمت فرضية البحث تقسيمه على مبحثين تناول الأول مفهوم الهوية ومن ثم مفهوم الهوية الافتراضية وكيف برز مثل هذا المفهوم مع بدايات الثورة المعلوماتية والتكنولوجية واستخدام التقنيات الإلكترونية في الاستخدام اليومي، ومن ثم تناول المبحث الثاني اليات واستخدامات الثورة المعلوماتية والتكنولوجية في الواقع العراقي وكيفية استخدام الهوية الافتراضية في المجال السيبراني العراقي والدور الذي لعبته هذه الهوية الافتراضية في اثارة جملة من الازمات الاجتماعية في المجتمع العراقي والتي كانت ذات طابع نفسي و اجتماعي سياسي او ذات طابع ديني ومذهبي وقومي.

المبحث الأول

مفهـوم الهـــــوية

تفترض المقدمة النظرية للبحث التعريف بأبرز المفاهيم الواردة فيه وهي الهوية والثورة المعلوماتية، والهوية في اللغة هي لفظ صناعي مركب وهو الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، والمعرف بأداة التعريف "ال" ومن اللاحقة المتمثلة في (ي) المشددة وعلامة التأنيث(ة) والهوية هي حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية وذلك منسوب إلى هو. (١)

والهوية في اللغة الانكليزية هي "Identity" ولها في المعاجم اللغوية الانكليزية أكثر من معنى إذ تعني حقيقة بقاء الشيء كما هو عليه وفي ظل أية ظروف مختلفة، وتعني أيضاً كينونة الذات أو الشيء، وتميز هذه الذات عن غيرها، وتعني أيضا الخاصية التي تجعل شخصاً ما معروفاً أو متعيناً أو حقيقة بقاء الشيء المعين ثابتة ومعروفة. كما تدل على التشابه التام في الطبيعة أو النوعية أو المماثلة التامة. (٢)

وتعني الهوية ايضا التماثل التام أو التشابه المطلق، كما ان كلمة "identify" تعني تعيين أو تأسيس الهوية عن طريق اثبات ان الشخص أو الشي المعين هو ما هو عليه والهوية في اللغة اللاتينية "identi" تعني الشيء نفسه او الشيء الذي هو ما هو عليه، أي الطابع العام او الصفة المميزة لشيء أو شخص ما.

والهوية في اللغة الفرنسية تعني "Identite" وهي تدل على مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما شخص معروف أو معين. (٣)

والهوية عند القدماء تدل على معان عدة لعل أبرزها التشخيص، والشخص نفسه، والوجود الخارجي، قالوا ما به الشيء هو "هو" على فرض تحققه يسمى ذاتاً وعلى فرض تشخصه يسمى هوية وإذا أخذ أهم من هذا الاعتبار اضحى ماهية، وقالوا إن الامر المتعقل من حيث أنه معقول في جواب ما هو" ماهية" ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الغير يسمى هوية، ومن حيث اللوازم يسمى ذاتاً. (٤)

والهوية فلسفياً تطلق على العلاقة الفكرية التي ترفع كثرة المعاني في الموضوع فتردها إلى الوحدة في الاشارة مثلاً: "أ في علاقة مع ب معناها انه على الرغم من الاختلاف في التعبير بين أ وب فان المقصود بهما

شيء واحد ، وفي المنطق والرياضيات تدل الهوية على علاقة بين شيئين أو كميتين كل طرف فيهما يقوم برأسه، ويستخدم للدلالة على هذه العلاقة بالعلامة (=)س=ص وتعني س في هوية مع ص . (٥)

وتعني الهوية في الادراك الفلسفي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة الى الشجرة في الغيب المطلق لذلك قيل إن الاحق باسم الهوية " من كان وجود ذاته من نفسها ، وهو المسمى واجب الوجود والمستلزم للتقدم والبقاء .

وقال ابو نصر الفارابي: " بأن هوية الشيء ، تعينه وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كل واحد ، وقولنا انه "هو" اشارة الى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له والذي لا يقع فيه اشراك، ولقد عد الفارابي الهوية من جملة الموجودات وليست من جملة المقولات، فهي من العوارض اللازمة، وليست من اللواحق التي تكون بعد الماهية، وهناك من يرى ان الهوية هي الوجود المحض الصريح المستوعب لكل كمال وجودي وشهودي . (٦)

ولقد عنت الفلسفة اليونانية قديماً بالهوية وبمبدأ الهوية ووضع ارسطو للهوية ثلاثة قوانين أساسية وعد بالإمكان رد قوانين الفكر الاساسية الى قانون واحد هو قانون الهوية فقانون عدم التناقض هو صورة سلبية لقانون الهوية، وقانون الثالث المرفوع صورة شرطية لقانون عدم التناقض، وقانون الذاتية صورة ايجابية للقوانين الثلاثة . (٧)

ولقد تناول عدد من الفلاسفة مفهوم الهوية الشخصية، والتي تعني ماهية الانا والذات وبقاء هذا الانا وهذه الذات على حالها من سنة لأخرى دون تحور أو تبدل، ولقد دار نقاش مستفيضٍ حول مصدر الهوية – الذات فهل هو العقل أو المادة . وإذا ما قلنا ان المادة هي مصدر الهوية كان ذلك بعيداً عنٍ الحقيقة، ذلك ان كل خلية في الجسم في تغير مستمر، كما ان الهوية – الذات لا يمكن ان تكون في العقل ايضاً ، ذلك ان مجموع العواطف والمشاعر والافكار التي تشكل الضمير تتغير بشكل ثابت ومستمر، كما ان الانسان لا يمكن ان يكون متماثلاً مع ذاته بالشكل الذي كان عليه قبل سنة مضت . (٨)

والهوية الشخصية تتحدد بناء على اسم الشخص وموقعه في المجتمع فضلاً عن الوجود المادي المستمر والذاكرة الثابتة وهذا الوجود المادي الموضوعي يبنى على قاعدة التماثل والاستمرار لوجود الانسان كفرد

ومقدرته على تمييز وإدراك المواقف العقلانية والاخلاقية والتي في حالة مرور الانسان بها يشعر بذاته وبشكل حاد وعميق الامر الذي يتكون لديه وفي أعماق ذاته صوت يناديه بالقول" هذا هو أنا حقيقة" .(٩)

وتدل الهوية عند المحدثين عادة على أربعة معانٍ وهذه المعاني هي:

١. يطلق اسم الهوية على الشيء من جهة ما هو واحد، كقولنا ان الشيخ الرئيس هو ابو علي بن سينا، وتسمى هذه الهوية بالهوية الفردية.

٢. يطلق لفظ الهوية على الشخص أو على الموجود المشبه بالشخص إذا ظل هذا الشخص ذاتاً واحدة رغم التغييرات التي تطرأ عليه في مختلف أوقات وجوده، ومنه قولنا هوية الانا، وهوية الفاعل، وتسمى هذه الهوية بالهوية الشخصية"Personal Identity"

٣. إلا أنها الهوية صفة لموضوعين من موضوعات الفكر على الرغم من اختلافهما في الزمان والمكان متشابهان في كيفيات واحدة، وتسمى هذه الهوية بالهوية الكيفية أو النوعية" Qualitive Identity" أو الهوية النوعية "Specific Identity".

٤. الهوية علاقة منطقية بين شيئين متحدين كالهوية الرياضية، والمساواة الجبرية والتي تظل صادقة رغم اختلاف قيم الحروف والتي تتقوم منها كما في العلاقة الجبرية الاتية: (ب+ج) ٢= ب ٢+ج٢+٢ ب ج. (١٠)

كما يطلق اصطلاح فلسفة الهوية على كل فلسفة لا تفرق بين المادة والروح وبصورة اخص على مذهب شيلينغ القائل بوحدة الطبيعة والفكر، لقد جعل شيلينغ من الهوية المطلقة جوهر العقل وماهيته، وتبعاً لذلك رأى ان الفلسفة لا يمكنها التخلص من المشاكل العويصة التي تتردى فيها إلا بالرجوع إلى مبدأ الهوية، ذلك ان جوهر الاشياء الاعمق هو الواحد، والكل الواحد يقوم على المعرفة الذاتية على وجه ادق وخارجها لا يوجد شيء قابل لان يُعرف ولهذا ينتهي الى القول بان العقل والهوية المطلقة ليست فقط ماهيته بل هي صورته وقانونه، أي ان المطلق واحد، ماهية واحدة هي عينها، وهذا يعني أنه آمن بوحدة الذات والموضوع ووحدة الطبيعة والفكر ووحدة المثل الاعلى والواقع، ووحدة المادة والروح، ومبدأ الهوية لدى شيلينغ يقوم

على ان الموجود هو ذاته، أي هو ما هو عليه، كما أن الهوية أيضاً هي التشخص وهي الحقيقة الجزئية، وقد تطلق على الذات الالهية فهوية الحق هي عينه. (١١)

ويصدق مبدأ الهوية على كل علاقة منطقية، كما انه المثل الاعلى للكم التحليلي، لان المحمول في هذا الحكم ليس جزءاً من مفهوم الموضوع وانما هو عين الموضوع نفسه، ومن مشتقات مبدأ الهوية مبدأ التناقض ومبدأ الثالث المرفوع، فأما مبدأ التناقض فيعني ان الشيء الواحد لا يكون موجوداً ومعدوماً في ذات الوقت، وأما مبدأ الثالث المرفوع فهو القول بأن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معاً، ولا تكذبان معاً. (١٢)

كما تحدد الهوية كمفهوم اجتماعي على أنها البعد المحلي أو الصبغة السائدة وهي طريقة الاداء المتوارث التي تحدد الخصوصية التي يتميز بها بلد ما وهو ما يمكن أن نوجزه في المنحى الخاص بطرح المشكلات والاستجابة لها وحلها مما يؤلف آخر الامر طابعاً مستمراً للفكر والسلوك والذي يميز شعباً ما عن شعب آخر، وبطبيعة الحال فان الصبغة الخاصة باي شعب قد صيغت بمقتضى مشروعات وانجازات متتابعة وذلك عن طريق البحث الدؤوب عن حلول للمشكلات وحلها، مما يؤلف أخر الامر طابعاً مستمراً للفكر والسلوك كالقول مثلا بالنزعة التجريبية والبراغماتية في الفكر الانكلوسكسوني، أو النزعة المثالية والبحث في الميتافيزيقيا لدى الفلاسفة الالمان وعلى الرغم من ان هذه النزعات لا تستنفذ كل مواقف الفكر والسلوك عند كل أمة لأن هنالك تنوعات متعددة، فالهوية تعني وحدة الانتماء، ولكن هذا لا يعني التجانس، بل الوحدة في المتنوع، وكل ما يؤدي الى التقارب والالتقاء عند نقاط مشتركة، ولقد صاغت هذه الشعوب هذه الصبغة أو تلك الهوية الخاصة بها بمقتضى مشروعات وانجازات متتابعة وذلك عن طريق البحث الدؤوب عن حلول المشكلات ومواجهة التحديات، واختيار مواقف ساد بعضها دون البعض الآخر وليس من خلال هوية مفطورة معطاة من امدٍ بعيد ولد بها الانسان منذ البداية. (١٣)

والهوية ايضاً عبارة عن منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية، وتنطوي على نسق عال من عمليات التكامل المعرفي وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية والتي تنطوي على إحساس بوحدة المشاعر الداخلية والتي تتمثل بوحدة العناصر المادية والتمايز والديمومة والجهد المركزي، وهذا يعني أن الهوية هي واحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة، والتي تجعل الشخص يتمايز عن سواه ويشعر بوحدته الذاتية. (١٤)

وأما أريك اريكسون(١٩٠٢-١٩٩٤) فقد عالج مسألة الهوية من زاوية نفسية بحتة والنقطة المركزية في نظرية أريكسون تتجلى في ان الهوية لا تتشكل بتأثير المحيط الاجتماعي فقط، ومن ثم شكك في النظريات التي تفترض إمكانية نشوء هويات صناعية جديدة عبر جهد مخطط، كما شكك في الوقت ذاته بالرؤية الفردانية القائلة بان الفرد قادر على فصل نفسه عن المحيط وإنشاء هوية جديدة مستقلة تماما إذ امن بان هوية الفرد تتشكل عن طريق كفاح طويل، يبدأ في مرحلة المراهقة ويتركز على تركيب عنصرين أولهما اكتساب القدرة على الانتاج والعلاقة مع المحيط وثانيهما الاحساس بالاندماج في عالم معنوي مناسب. (١٥)

وإذا ما كانت الهوية في الفكر الغربي تتحدد بالفرد أولاً، ومن ثم اندماجه بالمجتمع كمرحلة ثانية، فإنها في الفكر العربي تتحدد بالمجتمع إذ تنبع الهوية من المجتمع أساسا ولا وجود لهوية خارج المجتمع فهوية الامة العربية مثلا هي هوية تاريخية والتاريخ هو الذي شكلها فالأمة هي وحدها التي تمتلك الهوية سواء أكانت جماعة صغيرة أم كبيرة بشرط تماثل افرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الخارجي، وأي فرد لا يستطيع أن يستقل عن الجماعة في هذا الاطار، أي أنه في حاجة إلى هوية تجمعه مع الاخرين إذ ليس بإمكانه أن تكون له هوية لوحده، (١٦) وهذا يعني إن الحاجة للجماعة المرجعية مسألة مهمة وحيوية في تكوين وتكامل الشروط الخاصة بالهوية.

ولقد اهتمت الدراسات الأنثروبولوجية هي الاخرى بدراسة هوية المجتمعات البدائية وكذلك الحال هوية المجتمعات المتقدمة وبينت الطريقة التي تقوم بها المجتمعات المختلفة بالتعبير عن الهوية والقيم الثقافية والنسق الثقافي الذي تطرحه المجتمعات المختلفة للتعبير عن هويتها، ويشير مفهوم الهوية من زاوية أنثروبولوجية إلى توحد الذات مع وضع اجتماعي معين أو مع تراث ثقافي معين.

وهنالك في واقع الامر ثلاثة مستويات للهوية فهنالك الهوية على المستوى الفردي، أي شعور الشخص بالانتماء الى جماعة أو إطار إنساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات و(الهوية) بهذا المعنى هي حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية، وهنالك التعبير السياسي الجمعي عن هذه الهوية في شكل تنظيمات واحزاب وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري. وهنالك ثالثاً حالة تجسد وتبلور هذه الهوية في مؤسسات وبنى قانونية على يد الحكومات والانظمة.

وتبرز الهوية بأشكال وصيغ عديدة تبعاً للأوضاع المؤثرة ابتداء من تعبير الشخص الفرد عنها، وانتهاء بالأشكال التنظيمية الارقى عن طريق نسق نظامي وعقلاني وقانوني، وأشكال التعبير عن هذه الهوية لا تفترض بالضرورة تكاملاً وتلاحقاً وتفاعلاً اذ نرى قدراً من التضاد فكلما زادت درجة المأسسة للهوية أي خضوعها لمؤسسة معينة ضعفت أصالتها على الرغم من أن هدف المأسسة يبدو في الظاهر في أطار تأصيل الهوية والتعبير الافضل عنها، لان كل مأسسة للهوية تخدم واحداً من جوانب الهوية على حساب جانب آخر، والهوية على المستوى الجمعي قد تكون كامنة تنتظر الاطار التاريخي الذي يسمح لها بالتعبير عن ذاتها، وهنا يأتي دور النضال الفكري والسياسي لتحقيق هذا الاطار.

وتعد الهوية بمثابة الرمز والعامل المشترك الذي يجمع عليه أفراد الامة من حيث الانتساب والتعلق، والولاء، والاعتزاز، وهذا الانتساب والتعلق والولاء والاعتزاز يكتسب قداسته، لأنه لا يمكن أن يكون موضع شك من لدن أي طرف خاصة ممن يتكون منهم قاعدة الهرم وهي هوية القاسم المشترك بين الجميع استنادا الى الخلفية الثقافية والتاريخية الواحدة ومما يجعل هذا الاعتزاز بالهوية أمرا مشروعاً أيضا وحدة المصالح والمستقبل الواحد وبهذا المعنى الهوية هي الذات الجماعية لأفراد الامة كلهم والمساس بها يعني المساس بكيان الامة ويمس نفسية كل فرد منها لأنه شك في الماضي وطعن في الحاضر ،ويأس من المستقبل. ولعل العامل الاساس في تحديد هوية أمة من الامم أو بلد من البلدان هو: الخلفية الثقافية والتاريخية والصراعات الراهنة والتحديات التي تفرض عليه، والتجارب المختلفة والاوضاع التي يمر بها البلد وهي التي تصقل وتصهر هوية الافراد ومن ثم يشترك كل الافراد في صنع تلك الهوية الجماعية ويتعودون عليها بمرور الزمن فتصبح في نظرهم اصيلة كلما تقادمت وكأنها جزءُ من النظام الطبيعي نفسه بالرغم من ثبوت الطبيعة وتغير المعطيات الثقافية، ان الهوية في واقع الامر واقع دائم يبحث عن صيغة افضل لحياة أي بلد في الحاضر والمستقبل مما يجعل الهوية دائمة الحضور في الوجود التاريخي لأي بلد دون انقطاع وان تلون شكل هذا الحضور بميزة معينة في كل عصر من تاريخها. (١٧)

والهويات سواء أكانت فردية أو جماعية تستهلك طاقتها في عملية التواصل مع محور من القيم وهذه القيم هي التي تحدد الغاية من وجودها فالعقيدة الأيدلوجية أو الدينية تسلط الضوء على معنى الحياة فالمناضل يشعر بالنشوة عندما يعمل على وضع مبادئ عقيدته موضع التطبيق، وتعطي العقيدة الدينية للإنسان القدرة على تحقيق الرغبات والقيم التي تعمل على توجيه حياته وجعله يشعر بأحاسيس من الرضا والسعادة.

وتتكون هوية الجماعة عبر عملية تمثل مستمر لتأريخها ومن ثم فان عملية التحول الثقافي واستحضار الماضي الجمعي وتجارب النجاح والفشل للجماعة، وسلوك ابطالها النموذجي عوامل تسهم في بناء الهوية الثقافية للجماعة .

والواقع أن الاجابة على هذا السؤال يتمحور بالدور والمكانة التي يحتلها الفرد، ومن المعروف أصلاً أن الفرد قد يحتل سلسلة من المكانات والادوار المختلفة وتستمد كل واحدة منها من الانظمة التي يُشارك فيها، وهو لا يحتل هذه المكانات فحسب بل ويعرف الادوار الخاصة بها ولكنه لا يستطيع ممارسة هذه الادوار كلها وفي وقت واحد، فمثل هذه الادوار عنصر ثابت في مشاركته للحضارة المستترة لمجتمعه ولكنها تؤدي وظيفتها من حين لآخر عبر مشاركة الفرد، وبعبارة أخرى فان الفرد وعلى الرغم من مشاركته مكانات وأدوار متعددة ومعرفته لهذه الأدوار في كل المراحل الزمنية الا أنه يعمل بوحي مكانة واحدة ودورها واحيانا بوحي ومكانة غيرها، وتُعرف المكانة التي يعمل بموجبها الفرد في لحظة معينة بالمكانة الفعالة، أما الادوار الاخرى والتي لا يعمل بموجبها فتعرف بالأدوار الكامنة، أما الادوار المرتبطة بمثل هذه المكانات الكامنة فإنها تكف مؤقتاً عن العمل، الا انها تظل بمثابة أجزاء لا تنفصل عن هوية الفرد الحضارية .(١٨)

واما الهوية الرقمية فنعني بها الشخصية التي يتم انشاؤها من طرف المستخدم الانسان والذي يعمل كحلقة وصل بين الشخص الطبيعي والشخص الظاهري للمستخدمين بمعنى أن الهوية الرقمية أو الافتراضية هي السمات والمواصفات التي يقدمها الفرد الطبيعي للأخرين عبر النت فتكون عملية الاتصال بين ثلاثة أطراف وهم الشخص العادي والهوية الرقمية التي يبينها او يبلورها لذاته والأشخاص الاخرين .(١٩)

ويمكن أن توصف الهوية الرقمية بكونها مجموع الصفات والرموز والبيانات التي يستخدمها الافراد في تقديم أنفسهم للآخرين في المجتمعات الافتراضية الرقمية ويتفاعلون معهم عن طريقها .

ومن الطبيعي أن الهوية الرقمية أو الافتراضية تنبت أصلاً في المجتمع الافتراضي الرقمي والذي يدل على المحادثة والمحاورة عبر أجهزة الحاسوب بمعنى أن هنالك مجموعة من الافراد تربطهم اهتمامات مشتركة، ولا تربطهم بالضرورة حدود جغرافية أو أواصر عرقية أو قبلية أو سياسية أو دينية يتفاعلون عبر وسائل الاتصال ومواقع الاتصال والتواصل الاجتماعي الحديثة ويطورون فيما بينهم شروط الانتساب الى الجماعة وقواعد الدخول والخروج واليات التفاعل والقواعد والاخلاقيات التي ينبغي مراعاتها في المجتمع الرقمي .

ويسعى المجتمع الرقمي لإثبات هوية الفرد وقدرته على التواصل الفكري أكثر من رغبته في ابراز مظهره الخارجي، ولعل من المميزات الأساسي للهوية الرقمية هي المرونة وانهيار فكرة الجماعة المرجعية بمعناها التقليدي فلا وجود للحواجز الجغرافية بل للاهتمامات المشتركة التي تجمع معاً عدة من الأشخاص لم يعرف أي أحد منهم الاخر قبل الالتقاء الكترونياً . (٢٠)

وتدفع الهوية الرقمية الافراد لقدر من العزلة وأحيانا تكون عزلة قاتلة عن المحيط الاسري فتشوهت بفعلها صورة المحيط الاسري والعلاقات الاسرية لحد كبير، فكان هنالك استقلال عن قيود الزمان والمكان والذي يؤدي بالطبيعة للعزلة .

والهوية الرقمية أو الافتراضية هي هوية اختيارية لا تقوم أي جهة بفرضها على جهة أو فرد آخر وهو ما يعني إمكانية تلائمها مع الطابع العراقي والذي يرفض الانصياع لهيمنة جهة أو حزب أو مشروع سياسي، ويتمكن الفرد ضمن تعبيره عن هويته الاختيارية من ضمان الخصوصية والسرية والتي تحفظ معلوماته اذ يكون باستطاعته ممارسة قدر من الحجب او التبليغ عن المداخلات والمواد غير اللائقة او المقبولة . (٢١)

ويتمكن الفرد الناقم على نظام سياسي من ابداء مظاهر الثورة والسخط على مقومات هذا النظام وممارساته ويتغلب في الوقت ذاته على الخجل والانطواء .

لابد من القول ان العوامل المؤثرة على بناء الهوية بصفة عامة وهي المجتمع والانتماء تتشابه مع العوامل المؤثرة على بناء الهوية الرقمية، فالمجتمع هو أول وأهم العوامل المؤثرة على بناء الهوية، فهو يسهم في بناء هوية الفرد وتشكيلها ، اما الانتماء فهو الارتباط بالمكان الذي سيتم فيه بناء الهوية، كما يتجه الانسان نحو الانتماء يتجه نحو التفرد ، فبعض أجزاء أو جوانب الهوية ظاهرة يمكن التحدث عنها وبعضها خفية لا يمكن التحدث عنها ، كما أن هنالك جوانب يمكن اكتسابها أو فقدها أو تغييرها مع الوقت، والهوية الرقمية للفرد تتأثر أيضا بالمجتمع أو المجموعة التي ينتمي اليها ، كما ان هنالك عوامل مهمة أخرى مثل المستوى الاكاديمي، والجنس، والمهارات الشخصية، وعوامل أخرى يتم اكتسابها وأخرى تتغير مع الوقت .

لابد من التأكيد بان الهوية الرقمية لا ترتبط بشكل كبير بعصر المعلومات بل أن فكرتها قديمة مع وجود وسائل تواصل فكري كالكتب أو الطروحات الفكرية والعقائدية والفلسفية والتي تدفع الشخص للانتماء لجهة معينة أو حزب سياسي بدون الالتقاء بباقي أعضائه أو حتى مؤسس الحزب أو واضع ايديولوجية،

ولكن الاختلاف الجذري الذي جرى في هذا العصر يتجلى بطبيعة الهوية الرقيمة والتي هي هوية افتراضية يتم عن طريقها التمايز بين هوية حقيقة وهوية يقوم الفرد بصياغتها عبر شبكات الاتصال الاجتماعي فالهوية الرقمية في حقيقتها ذات افتراضية تمثل جملة البيانات الدالة على مرجعية مستخدم الشبكة المعلوماتية الانترنيت بوصفه فرداً ويبدا تشكيل هذه الهوية الرقمية عن طريق تسجيل المعلومات الخاصة بالفرد والعلامات الخاصة بالهوية والمتناثرة مثل الاذواق والهوايات ومراكز الاهتمام والأنشطة، وهنا تبرز قادة بيانات واضحة للفرد مثل العمر والتحصيل الدراسي ومكان الدراسة والعمل ومن ثم بيانات أكثر تطويراً تشمل الاهتمامات السياسية والدينية والروابط القرابية والعشائرية والتي تشكل ميدانا مهما للتفاعل في المجتمع العراقي، وتقع هذه الهوية الرقمية في قلب العلاقات على الشبكة الاجتماعية الرقمية، وعن طريق هذه الهوية تبدو الذات الفردية متحررة من اكراهات الحضور الثنائي أو الجماعي فان فقدان الجسم وغياب الحدود الزمنية التي تميز البيئة الرقمية تنشئ تجارب متنوعة واصيلة وجريئة حتى لوضع الذات وتولد ضمن هذه البيئة هويات متعددة مرئية في الفضاء الرقمي وهذا الفضاء يعيش فيه افراد حقيقيون اتخذوا لهم هويات افتراضية بعيدة في أحيان كثيرة عن الهوية الحقيقية.

المبحث الثاني

الهوية الرقمية وإعادة تشكيل الهوية

لقد قامت الشبكة المعلوماتية في حقيقية الامر بتشكيل وإعادة تشكيل الهويات والقضاء على الخصوصية الثقافية أو تنميطها على اقل تقدير فتم إزالة عنصر المكان الذي كان أساس التجمع، إذ كان لابد من وجود أرض يجتمعون عليها لتحالفهم وتفاعلهم، إلا أنه بوجود وسائل التواصل الرقمي لم يعد التفاعل على أرض واحدة هو الباعث الأول للتجمع بل التفاعل غدا عن طريق هوية رقمية اختارها الفرد رغم أن عدد الافراد الذين يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي في المجتمع العراقي بانتظام من أجل تشييد هوية جديدة هو عدد محدود جدا إذ يدخل غالبية الافراد حاملين معهم هويات مكتملة وليسوا ساعين لبناء هويات جديدة.

ولابد من القول ان صعود المجتمع الرقمي يرتبط بانهيار شرعية الهويات المشرعنة ولاسيما مع صعود موجة العولمة الاقتصادية وتراجع الدولة الوطنية والمؤسسات التقليدية عن أداء دورها او القيام بتوجيه والهيمنة على الهويات الجمعية في المجتمع. (٢٢)

لعل من المزايا الأساسية للهوية الرقمية والعلاقات التي تنشأ في إطارها هي التجرد من الخصوصية فانخراط الفرد أو الجماعة في المجتمعات الرقمية الافتراضية جردهم من الخصوصية واخرجهم الى العالم وأفلت القبضة التي تمتلكها الهوية في ترتيب سلوك الفرد والجماعة وارتبط بفك الارتباط بالهوية الجمعية فك الارتباط بالوطن والرموز الدينية والتاريخية وتغيير اللغة المستعملة في التواصل والاشارة والتحية والرموز.

كما تجرد الفرد من الذات والانا الإنسانية وتحول لمجرد اسم مستعار أو رقم جهاز أو صورة رمزية ففي المجتمعات الرقمية ينمحي الحضور الجسدي وتفقد العناصر الظاهرية للفرد والتي يعرف عن طريقها مثل الجنس واللون والهيئة والتحصيل العلمي ولا يكاد يعرف الا عن طريقه معرفه الرقمي (٢٣).

لقد أسهمت وسائل الاتصال الرقمي في ربط الافراد والجماعات مع بعضهم البعض في مختلف دول العالم، وتمكنت من فك عزلة المجتمع، كما تغلبت وسائل الاتصال الرقمي على الوقت والمسافة، حيث تمكنت من اختراق الحدود المكانية والزمنية، مما أدى للتفاعل والمشاركة الجماعية، والمساهمة في تعزيز ودعم قيم التنوع

الثقافي، وزيادة وتنويع مصادر المعرفة والمعلومات، كما شهد العصر الرقمي سرعة كبيرة وتطور اسرع في صناعة تكنلوجيا وسائل الاتصال والمعلومات، مما انعكس ايجابيا على شكل هذه الوسائل ومضمونها وخصائصها وانتشارها، وقدرتها على التأثير، وتمثل الهوية الرقمية نافذة يطل منها الانسان في هذا العصر على العالم، ويرى عن طريقها ثقافته وحضارته، فهي تضمن حرية التعبير لجميع اشكال الممارسات الثقافية والاجتماعية والدينية والفلسفية. (٢٤)

لقد برزت جملة من السلوكيات التي تخص دخول الفرد للبيئة والمجتمع الرقمي وتتجلى بوجود سمة التلاحق والاتاحة والتي نعني بها رغبة الفرد في المشاركة في الموضوعات التي يتم طرحها كموضوع رئيس في البيئة الرقمية وأما الاتاحة فتتجلى بإمكانية الدخول للمجتمع الرقمي في أي زمان ومكان ولأي خطاب وأسلوب وللجميع بدون تمييز، فاصبح الكل تحت ضغط فكرة عامة وهي انه يجب ان يدلو برأيه باستمرار في كل حدث يمر به البلد أو عارض الم بالمجتمع دون الرغبة الحقيقية بالمشاركة الفعلية في مخرجات أو صناعة هذا الحدث، واضحت فكرة الرفض والتمرد شائعة كرد فعل على حدث ما يتساوى فيها الشجاع مع الجبان والمثقف والخبير مع الشخص الذي لا يملك أي مؤهل يمكنه من الادلاء برأيه في موضوع ما. (٢٥)

وعلى الرغم من أن وسائل التواصل الاجتماعي تميزت بوجود نمط رافض لجملة من الأوضاع المتردية التي يعاني منها المجتمع العراقي الا أنها أضحت مفتقدة لأولوية طرح البديل كما ان تكرار ذات الخطاب ورد الفعل على حدث معين كنمط من الاحتجاج وكأحد وسائل التعبير وتبادل الرسائل المجتمعية أو السياسية والافراط أو الثبات أو التلاحق في حالة الانفعال أو الغضب في التفاعل مع الاحداث يفقدها أثرها.

ولعل من الاثار البارزة الأخرى على استخدام الهوية الرقمية هو شعور الفرد العراقي بانه وعلى الدوام أضحى يواجه العالم والجموع للتعبير عن هويته الرقمية المفترضة ففي حالة طالب جامعي مثلاً يفترض ان يعبر عن رأيه في النظام التعليمي والية الامتحانات والاختبارات وعلى المجال الشخصي قد يعبر عن اهتماماته وهواياته الخاصة كالرياضة والفن والسفر الا انه في الحقيقة يضطر لاتخاذ الشكل الاجتماعي الافتراضي عن طريق الحرص على الوجود الافتراضي الرقمي واكتساب أكبر عدد ممكن من المؤيدين والمتابعين بغض النظر عن طبيعة الموضوع الذي تم طرحه في البيئة الرقمية.

بدت سلوكيات الفرد العراقي في ظل البيئة الرقمية أكثر انعزالاً وتوحداً وإيماناً بالاكتفاء بالذات أو ما يمكن تسميته بذوبان فكرة القيم العامة القديمة ومنطقها والذي من المفترض ان يسري على جميع الافراد ويضبط علاقاتهم الاجتماعية ببعضهم البعض كما تحولت فكرة الذاتية ومنطق الاكتفاء بالذات إلى فكرة نفي الآخر أي آخر سواء كان مذهبياً أم عرقياً أم دينياً وتجاهل منطق وجوده وهو ما يولد ازمة تصارع وتنافر بين المكونات المجتمعية العراقية والتي تعيش في ظل أزمة أصلاً برزت على السطح بشكل كبير عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي، فصار المتابع يلاحظ ان الفرد العراقي يعد ذاته محور العالم ومركزاً له وان وجوده فاعل في هذا العالم ويعد كل آخر هامشاً وينفي مشاعره ويعده ويعد وجوده صفراً وهامشياً فأضحى المجتمع الرقمي الافتراضي في العراق عبارة عن مجموعة من الافراد المنعزلة بمنطقها الوجودي تنفي وجود بعضها البعض الآخر، ولا سيما في مجال الحقوق واحترام الآخر المختلف ويبرر الفرد في أحيان كثيرة مسألة التمركز على الذات بالتجربة الشخصية وسرد تفاصيلها وتغييب المنطق الجامع المفترض والذي يفترض ان يتسم بالعدل والضبط للأطراف المتنافرة، كما تحولت فكرة السيولة والاتاحة في المجتمع الرقمي لان تتحول مشاركات الافراد العراقيين الى ما يشبه (السرد والحكي) لقصصهم وتجاربهم وهو الامر الذي جعل بعض الافراد ينفصلون عن العالم الخارجي وقيمه ويتحولون إلى الدوران المستمر في فلك الذات وكان العالم عبارة عن حكاية شخصية لوجودهم الخاص والفردي. (٢٦)

لقد غابت في ظل استخدام الهوية الرقمية في المجتمع العراقي القيم العامة والتي يفترض ان تعمل كحاضنة وضابطة لكل الافراد وعن الآلية التي يمكن عن طريقها استعادة الاهتمام المشترك بوجود منظومة القيم العامة تلك أو المشاركة الفاعلة فيها وكيف يمكن ان تطور منظومة قيم افتراضية مشتركة جديدة يؤمن بها الجميع ويعمل من أجلها وتحافظ بالمقابل على حقوق متساوية للجميع بدلا من حالة الهوس بالذات التي نمتها وغذتها فكرة الإتاحة والسيولة كسمة أساسية من سمات المجتمع الرقمي.

كما تأثرت العلاقات الاجتماعية التقليدية داخل المجتمع العراقي باستخدام الشبكة المعلوماتية واعتماد الهوية الرقمية كأداة للتفاعل الاجتماعي فقد نتج عن تطور المجتمعات الافتراضية الرقمية حالات متفاوتة من الانقطاع عن العالم الواقعي وانهيار العلاقات الاجتماعية، فلم تعد الاسر العراقية تتزاور كما كانت تفعل من قبل إذ اغنتهم الرسائل النصية القصيرة ولوسائل البريد الالكتروني والبطاقات الالكترونية وما يكتبون ويتبادلون على الفيس بوك وتويتر والانستغرام عن التزاور والتراحم والحوار وجها لوجه، ولم تعد صورة الاسرة

التي تعيش في بيت واحد بينما ينهمك كل فرد من أفرادها بعالمه الرقمي وهويته الرقمية الا مجرد رمز وهو ما يبرز حقيقة مقلقة تحتاج لان تولى مزيدا من الانتباه من لدن ارباب الاسر العراقية، إذ لا يمكن الادعاء بان المجتمعات الرقمية هي مدينة فاضلة واحدة ولا فضاءً مفتوحاً واحداً، بل مدناً تعج بالأصيل والمزيف بالغث اكثر من السمين وفضاءات تتقاطع وتتوازى وتبدو وكأنها فضاءات طوباوية متعددة من وجهة نظر من يتمتعون بالإقامة فيها . (٢٧)

ومن ثم لم تعد الجغرافيا ولا الانتماء العرقي أو اللغوي يتحكم في وجهة الانتماء فلم تعد المدرسة أو أي جهد حكومي وطني قادراً على مواجهة طوفان من العوالم الافتراضية الرقمية والتي يمكن ان تأخذ روادها بعيداً عن بيئتهم الطبيعية وعن ثقافتهم ولغتهم وهويتهم الاصلية وعن واجباتهم والتزاماتهم الدراسية والمهنية والاسرية، ولقد كرست مثل هذه النزعة بالابتعاد والاستغناء عن مقومات الهوية الاصلية جملة من الأوهام في البيئة الاجتماعية العراقية ومنها وهم الفردية إذ يعتقد الفرد العراقي أو بات يعتقد بان حقيقة وجوده محصورة في فرديته وأن كل ما عداه أجنبي عنه ولا يعنيه، ويعمل مثل هذا الوهم على تخريب وتمزيق الرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضواً في جماعة وفي طبقة وأمة، ومن ثم فان وهم الفردية يرمي لإلغاء الهوية بمعناها العام الشامل وما تفرضه من واجبات والتزامات ليبقى العالم الشبكي هو وحده العالم الموجود .

كما تم تكريس النزعة الانانية باسم الخيار الشخصي والذي يعمل على طمس الهوية الجماعية باسم الحرية الشخصية، وهم الحياد والذي يدفع بالأمور خطوة في الاتجاهين السابقين، فما دام الفرد وحده الموجود، وما دام حراً مختاراً فهو محايد وكل الافراد المغايرين له هم محايدون أيضاً أو يفترض ان يكونوا كذلك، وهكذا تعمل هذه الثقافة عن طريق وهم الحياد إلى تكريس التحلل من كل التزام أو ارتباط بأية قضية، ومن المعروف ان المجتمع العراقي يعج بالأزمات على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي والتي تتطلب جهداً جماعياً من لدن أغلب أفراد المجتمع لمواجهتها وحلها بدل الركون لوهم الحياد . (٢٨)

لقد أضحت الهوية الرقمية ذات حدود غامضة المعالم إذ لا تحدها حدود جغرافية أو تضبطها منظومة قيمية، فهي بمثابة فضاء مفتوح لا محدود لمواطنين كونيين من مختلف الأعراق والاجناس، وعلى هذا الأساس فهوية أي فرد عراقي أضحت تتدرج من هويته الوطنية المحملة اصلاً بأبعاد دون الوطنية لتمتد لأبعاد عالمية

وأن الهوية الرقمية وان كانت تعكس جزءاً بسيطاً من ما هو موجود في العالم الواقعي، فان حركيتها تكشف عن جملة من التحديات المحيطة بها .

أضحى الفرد العراقي يعيش حالة من النمط الذاتي المهووس بالوجود الذاتي في المجتمع الرقمي الافتراضي وهي حالة تشبه الإدمان على استخدام وسائل التواصل الاجتماعي ويمارس كل فرد جملة من السلوكيات التي قد تتناقض في أحيان كثيرة مع شخصيته الحقيقية بغية جذب المتابعين والمعجبين والمهتمين ويتحول الوجود في العالم الرقمي لغاية بحد ذاته أكثر من كونه وسيلة للتفاعل الاجتماعي الهادف، وتبرز في هذه الحالة فكرة اشباع الإحساس بالنقص والخواء النفسي والروحي عبر الوجود الدائم في المجال الافتراضي وتتم في أحيان كثيرة مناقشة الشؤون العامة وأحيانا الشؤون الشخصية وفي حالة طرح او بروز قضية عامة نلاحظ أن هنالك رغبة بالوجود المستمر عن طريق التدوين المتتابع والمتلاحق للأحداث العامة من لدن أشخاص قد يفتقدون لمعلومات أساسية تخص الموضوع الذي يتم تسليط الأضواء عليه مثل الحرب الروسية الأوكرانية على سبيل المثال أو الوقوف موقف الضد أو المؤيد بشكل تام لأحد طرفي أزمة دولية قد لا تهم الواقع العراقي أو تخصه بأي حال من الأحوال، ويتبع هذه الحالة قدر من تكرار الفعل والاتجاه إلى البحث عن طرح مغاير لفكرة الصوت العالي والهوس الذاتي والرغبة المرضية بالتعليق على كل صغيرة وكبيرة تحدث في الساحة العالمية، شيئاً فشيئاً تحول الوجود في العالم الرقمي واكتساب الهوية الرقمية لحالة من الهوس بالذات وسيعد المجتمع الرقمي بمثابة مجال يمتد فيه ممارسة الأنماط السلوكية القديمة للفرد والتأكيد عليها وتضخيمها وهذا يتماشى مع آراء بعض الباحثين الذين يرون أن عدداً كبيراً من الافراد يستخدمون الابتكارات التقنية الحديثة ومنهم بطبيعة الحال فئة كبيرة من افراد المجتمع العراقي بغية ملائمة وتسهيل أنماط سلوكية مستقرة وعلى هذا الأساس نجد ان الصراع المذهبي يشغل صفحات كثيرة داخل البيئة الرقمية التي يلجها العديد من العراقيين وكذلك التشهير بالأصول العشائرية والانتماءات القبلية والصراع حول جوانب تاريخية شكلت علامات افتراق وتصدع في الهوية الجمعية العراقية، وقد يعود العامل الأساسي لمثل هذا التوجه نحو الثيمات التقليدية في البيئة الرقمية الافتراضية في العراق لكون الفرد العراقي لم يكتسب الاحديثا وعبر مخرجات معينة أدوات الحداثة ومقولاتها ومن ثم لم يتمكن من استيعاب فضاءاتها المعنوية ولم تنشط باي حال من الأحوال في المجتمع ثورة معلوماتية ومعرفية قادرة على خلخلة الكثير من الثوابت وتستنفره لعدم التقليد والاستسلام للتقليد المطلق .[٢٩]

ويظهر من متابعة عدد كبير من صفحات و وسائط التواصل الاجتماعي العراقي أن استخدام وسائط التواصل الاجتماعي واكتساب هوية رقمية قد جاء كنوع من التعويض في أحيان كثيرة عن الإحساس بالأزمة والهروب النفسي منها اذ يعد الهروب للوجود الرقمي الافتراضي بمثابة استكمال لنقص ما في وجود الانسان الطبيعي وسيجد بل وجد أصلا مجموعة من الشخصيات المتطرفة التي تقدم للناس الاختيار المتطرف في فكرة ما أي التطرف في لغة الحوار التي لا تتماشى مع الأساليب الحضارية في التعامل والتطرف في السخرية والتمثيل المصور في فيديوهات لمواقفها التطرف في موقف جزئي ما كرد فعل لتناقض مجتمعي تاريخي .

يبدو الفرد العراقي في ظل البيئة الرقمية شديد الحرص على إثبات صحة رأيه والاهتمام بما يرى الناس عنه أي الجمهور المفترض بما ينشر أو يكتب حتى وإن كان ما ينشره لا يستحق المتابعة والتعقيب، وكذلك الحرص الشديد على اظهار وعرض ما يملكه الفرد وما اقتناه، إذ تحولت الهوية الرقمية في المجتمع العراقي لأداة من أدوات عرض النزعة الاستهلاكية التي غدت متحكمة في السلوك الجمعي في العراق وذلك يتم عن طريق عرض ما اقتناه الفرد من مركبة أو أي جهاز أو مقتنى مادي، ومثل هذا العرض الدوري يأتي في اطار تسابق مع افراد اخرين لتبيان المنافسة في الحصول على أغلى وأحدث الموديلات من السلع المادية وهو ما أوجد حالة من هوس الشراء والذي قد يدفع بالفرد لشراء أشياء غير ضرورية والاعتماد على التسوق كوسيلة للتخلص من التوتر وتحسين المزاج وهو ما يدل على كون الفرد يعيش بحالة من الفراغ الروحي والمعنوي، وما تؤديه مثل هذه الرغبة من عدم القدرة على الادخار وتطوير الوضع الاقتصادي للفرد والذي يعيش في مجتمع يستورد أغلب السلع الأساسية والكمالية من بلدان عديدة وبالعملة الصعبة، أي إن حالة العرض المستمر في البيئة الرقمية للمقتنى المادي يتبعها حالة تقليد ومنافسة من أفراد آخرين لتقليد شخص ما أو ممثل ما بدون التهيئة التامة لمثل هذا الانفاق وانما الرغبة بمجاراته والظهور بمظهرة في البيئة الرقمية الافتراضية . (٣٠)

تتعرض الهوية الرقمية أيضا لحالة من السرقة اذ بات من السهل الحصول على المعلومات التي يتم تخزينها بالأجهزة الالكترونية المرتبطة بشبكة الانترنيت، كما انه يمكن تبادل المعلومات بين حاسوب وآخر وهو الامر الذي جعل شفافية الانسان وخصوصيته مكشوفة تماماً لأي شخص يود التعرف عليه أو مراقبة ما يكتب وينشر عبر الشبكة المعلوماتية، فالبيانات الشخصية المتصلة بالحياة الخاصة بالفرد أو عائلته غالبا ما يقوم الشخص بتقديمها بنفسه أو تتوصل اليها جهات أخرى بطريقة ما وقد يكون الامر ماسا بالتهديد بالحياة اذا ما افشيت هذه المعلومات رغما عنه أو دون رضا مسبق أو نشرت بإحدى الطرق العلنية دون موافقة الطرف

المعني، ولقد بدأ المجتمع العراقي بالمعاناة من جرائم تخص الابتزاز الإلكتروني ومحاولة سرقة الهوية الرقيمة والابتزاز الالكتروني هو في حقيقة الامر محاولة ترهيب وتهديد الضحية بنشر صور أو مواد فلمية أو تسريب معلومات سرية تخص الضحية، مقابل دفع مبالغ مالية، او استغلال الضحية للقيام بأعمال غير مشروعة لصالح المبتزين كالإفصاح بمعلومات سرية خاصة بجهة العمل أو غيرها من الاعمال غير القانونية .

وغالبا ما يتم تصيد الضحايا عبر البريد الالكتروني أو وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة كالفيس بوك وتويتر والانستغرام وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي نظراً لانتشارها الواسع واستخدامها من لدن فئات كبيرة داخل المجتمع، وتتم عملية الابتزاز عن طريق إقامة علاقة مع الشخص المستهدف، ثم تتم عملية الانتقال لمرحلة التواصل عن طريق برامج المحادثات المرئية، ثم يقوم بعد ذلك المبتز باستدراج الضحية وتسجيل المحادثة التي قد تحتوي على محتوى سيء وفاضح للضحية ثم يقوم أخيراً بتهديده وابتزازه بطلب تحويل مبلغ مالي أو تسريب معلومات سرية وقد تصل درجة الابتزاز في بعض الحالات للطلب من الضحية جملة من الأفعال المخلة بالشرف والأعراف إذ يستغل المبتز استسلام الضحية وجهله بالأساليب المتبعة في مثل هذه الحالات[٣١] ، ولقد بدأت حالات في المجتمع العراقي تدل على انتحال صفة موظفين أو مؤسسات بنكية ومصرفية بقصد الاحتيال الالكتروني في عمليات القروض والسلف وما يماثلها وتتلقى وحدة مكافحة الجرائم الالكترونية مجموعة كبيرة من البلاغات والشكاوى حول انتحال صفة موظفين ومؤسسات بنكية ومصرفية على مواقع التواصل الاجتماعي وايهام الضحايا بان الحسابات التي تتواصل معهم هي رسمية وتابعة لتلك المؤسسات واستدراج الضحايا الى معاملات وجوائز وهمية للاحتيال المالي الالكتروني [٣٢] .

الخاتمة والاستنتاجات

شكل العالم الافتراضي الرقمي الذي نجم عن استخدام الشبكات المعلوماتية ميداناً واسعاً ومهما تجاوز اطر ومحددات الهوية بمعناها التقليدي فهو حصيلة للتأثر والتأثير المتبادل بتوجهات مجتمعات أخرى هي الاقدر على التأثير في المتلقي التقليدي، إذ وفر التقدم التكنولوجي إمكانيات هائلة في إدارة وتنظيم المحتويات الفكرية التي تمس بناء الهوية الفردية والجمعية بنحو مباشر، لقد دفع التقدم التكنولوجي بالفرد المعاصر في خضم المشاركة في العالم الرقمي والذي غدا ولوجه سهلا ومتاحا للجميع ولا يحتاج لمهارات ومؤهلات معينة فهو متاح للجميع بغض النظر عن العمر أو المؤهل العلمي أو الثقافي وامتلاك ناصية اللغة وهو ما انعكس على انساق القيم والمرتكزات الثقافية التي تهد بمثابة الكيان الهوياتي لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، فلقد تجاوز الدخول للعالم الرقمي أي قيود أو ضوابط يمكن ان تحد المرء من التأثر بنوع ما ينشر في هذا العالم إذ لم تعد وسائل التقنين والمتابعة قادرة على ضبط ما ينشر وما يعرض من مضامين اذ ترك للمجتمع الرقمي تحديد أولويات التفاعل وتصدر التأثير والاعجاب، ولما كان المجتمع الرقمي هو خليط من أفراد وتوجهات مختلفة ومتناقضة لا يضبطها رادع أو يوجه سلوكها قانون محدد كان من الطبيعي أن يفرز هذا المجتمع مختصين من غير احاطة علمية أو مؤهلات تمكنهم من إبداء آرائهم في جملة من القضايا الإنسانية والاجتماعية، كما أسهم التوظيف السياسي والعقائدي في دفع المتلقي بشكل سلبي لان يكون بمثابة منفعل لا فاعل في التعامل مع معطيات الهوية الرقمية، والتي أوجدت ما يمكن تسميته بالعدالة الرقمية أي ان استخدام وسائل التواصل الاجتماعي غدا متاحا للجميع، واضحت الهوية أداة للهروب من الواقع ومن مشاكل الواقع المتراكمة وأصبحت بمثابة الملاذ الامن للفرد والذي انطوت فيه نرجسيته وانانيته وتغليبه لمصلحته على حساب المجموع.

ولم تؤدِ الهوية الرقمية في العراق إلى زيادة التقارب بين افراد المجتمع بل على العكس من ذلك زادت من حدة التباعد والتنافر، وأبدت جملة من العيوب والندوب التي تعاني منها الهوية العراقية والفرد العراقي على صعيد علاقته مع الذات والآخر المختلف، فلم يظهر بمظهر المتصالح مع ذاته أو الآخر باي حال من الأحوال، كما طرحت في ظل أجهزة التواصل الحديثة مشاكل واشكاليات عاني منها المجتمع العراقي وكانت مرتبطة بحقب تاريخية ماضية ومنها ما كان يتعلق بعصور ما قبل الإسلام والعصور الإسلامية وما دار فيها من صراعات مختلفة ومنها ما يتعلق بالعصر الحدي، فكان كل طرح فكري او توجه مرتبط بالاطار الهوياتي

ضمن الشبكة المعلوماتية يواجه باتهامات أو تشكيك بالهوية والانتماء، ولم تظهر حدود فاصلة بين ما هو شخصي وبين ما هو عام في التعبير عن الهوية الرقمية بمعنى ان المزاج الشخصي قد يعبر عنه بطريقة لا يصح ان تكون عامة ومتاحة للجميع أو حتى تصح قراءتها والاطلاع عليها ضمن الفضاء العام الذي تمثله وسائل التواصل الاجتماعي.

لقد استخدمت الهوية الرقمية أحيانا بالشكل الصريح وأحيانا بشكل غير صريح واستعاري وكانت بمثابة أداة انتقاص وطعن بأشخاص مختلفين أو متناقضين عقائديا أو فكريا للفرد المستعير للهوية الرقمية أو المستخدم للهوية الرقمية بشكل استعاري وهو الامر الذي أوجد سبلاً جديدة من الإشكاليات والتناقضات بين أفراد المجتمع العراقي بسبب النشر في وسائل التواصل الاجتماعي .

المصادر والهوامش

١. المنجد في اللغة والاعلام، بيروت، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية، ص:١٠ .

2. Laurance Urdang,(1977) The Random House Dictionary of English Language, Allied Publishers, printed Limited,India, p:659

3. Idiomatic and Syntactic English Dictionary,(1957),Macmillan Company, London ,p:265

٤. صليبا، جميل، (١٩٧٩) المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الجزء (٢)، ص:٥٢٩ .

٥. تفاصيل أكثر عن المفهوم الفلسفي للهوية، ينظر: حنفي، حسن، (٢٠١٢) الهوية، القاهرة، المجلس الاعلى للثقافة، ص: ١٧-١٩

٦. صليبا، مصدر سبق ذكره، ص:٥٢٩

٧. حول هذا الموضوع انظر: ستناوي، حمزة، في نقد الهوية الجوهرانية عند ارسطو والعقل الثابت، (٢٠١٤) الاوان، الاحد، ٢٤-ايار، مايو.

8. Encyclopedia Americana,American Corporation, International Headquarter, Danbury, Conneticut,USA,P:743

9. David Sills (Editor)),(1972) International Encyclopedia of Social Science,Volume,7,the Macmillan Co, New York, p:61

١٠. صليبا، مصدر سبق ذكره، ص:٥٣١ .

١١. صليبا، مصدر سبق ذكره؛ ص:٥٣١ .

١٢. عبد الرزاق، عـلاء، (٢٠٠١) أزمـة الهويـة في الفكـر العربـي المعاصـر، بـين الاصـالة والمعاصـرة، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة مقدمـة لكليـة العلـوم السياسـية، جامعـة بغـداد، ص:٢٠.

١٣. صـلاح قنصـوة، (١٩٧٩) الغـزو الثقـافي وحـوار الحضـارات، المنـار، س(٣)، ع (٣١)، الاول من تموز، ص:١٣١.

١٤. اليكس ميكشيللي، (١٩٩٣) الهوية، ترجمة: د. علي وطفة، دمشق، دار الوسيم.

١٥. مؤسسـة لجـان العمـل الصـحي الفلسـطينية، (٢٠١٠) ((اعـداد))، مفهـوم الهويـة، البـيرة، رام الله، ص:٣. تفصـيلات أكثـر عـن حيـاة وطروحـات أريـك أريكسـون في مجـال علـم الـنفس وبناء الشخصية، انظر:

Brenman-Gibson, M (1997), "The legacy of Erik Homburger

16. Erikson.", Psychoanalytic review (Jun 1997) 84 (3), pp. 329–335

١٧. نديم البيطار، (١٩٨٢)، حدود الهوية القومية، نقد عام، بيروت، دار الوحدة، ص:٢٢

١٨. رالـف لنتـون، (١٩٦٤)، الاصـول الحضـارية للشخصـية، ترجمـة: د. عبـد الـرحمن اللبـان، بيروت، دار اليقظة العربية، ص:١١٤–١١٥.

١٩. مسـعودة طلحـة، الهويـة الرقميـة، مـأزق الاسـتخدام والخصوصـية، مداخلـة مقدمـة لأعمـال المـؤتمر الـدولي: الظـاهرة الإعلاميـة والاتصـالية في ظـل البيئـة الرقميـة، الجزائـر، مـارس اذار ٢٠١٨، ص6_5:

٢٠. كلثـوم بـاميمون، الباقـات الثقافيـة الموجهـة للهويـة الرقميـة، في ضـوء تحـديات المجتمـع الشـبكي، مـن التـداول الافتراضـي الى الممارسـة الواقعيـة، مجلـة إضـافات، شـتاء وربيـع ٢٠١٦، ص69:

٢١. ليلى يوسف محمد صلى، واحمد عبادة العربي، الهوية الرقمية النشأة والتعريف والمعايير الفنية، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد (٤٦)، ٢٠٢٢، ص10:

٢٢. رحيمة الطيب عيساني، الهوية والخصوصيات الثقافية في المجتمعات الافتراضية، مجلة الاعلام والعلوم الاجتماعية للأبحاث المتخصصة، العدد (٢) المجلد (٣)، نيسان،٢٠١٨، ص156-155 :

٢٣. على نابتي، الهوية الرقمية واقع تكنولوجي وشكل جديد لحضور الفرد المعاصر، مجلة متون، جامعة الطاهر سعيدة، المجلد (٨) العدد (٤) يناير(جانفي)،٢٠١٧، ص-535: 536

٢٤. سوزان عدنان الأستاذ، انتهاك حرمة الحياة الخاصة عبر الانترنيت، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد (٢٩) العدد (٣)، ٢٠١٣، ص433:

٢٥. حاتم الجوهري، من الفيس بوك الى علم الاجتماع الافتراضي، الفكر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد (١٦)، أكتوبر_ديسمبر،٢٠١٩، ص143-142 :

٢٦. علي محمد رحومة، علم الاجتماع الالي، مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، سلسلة شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٣٤٧، ٢٠٠٨، ص135-134 :

٢٧. نفس المصدر السابق، ص165:

٢٨. مسعودة بايوسف، الهوية الافتراضية، الخصائص والابعاد، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح(ورقلة_الجزائر)، عدد خاص بالملتقى الدولي الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السيسوثقافية في المجتمع الجزائري، فبراير– شباط،٢٠١١، ص465 :

٢٩. علاء عبد الرزاق، العالم الافتراضي في البيئة الرقمية العراقية، إشكاليات الفكرة ونقيضها، ورشة عمل مقدمة لقسم دراسات الازمات، مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، اذار، 2021.

٣٠. نفس المصدر السابق

٣١. مسعودة طلحة، مصدر سبق ذكره، ص12 :

٣٢. للتفصيل ينظر: خالد عبد الله حمادي، الاحتيال الالكتروني فن اختراق العقول (الهندسة الاجتماعية)، وزارة الداخلية العراقية – مديرية العلاقات والاعلام، 2019